الأهرام

العدوان الثلاثي ونظرة الى الماضي

لقد ادت كارثة السويس في عام ١٩٥٦ والتي تمثلت في قيام بريطانيا وفرنسا واسرائيل بالعدوان الثلاثي على مصر، الى ازمة سياسة كبرى في بريطانيا. اذ اجبر السير انطوني ايدن، رئيس الوزراء في ذلك الوقت على التنحي عن منصبه وخلفه السيد هارولد ماكميلان. وعلى الرغم من ان حزب المحافظين كان يتمتع بالأغلبية في مجلس العموم آنذاك واستطاع البقاء في الحكم في حينه، الا ان تلك الأزمة ادت الى حدوث تغيير بارز في مواقف الحزب المذكور وبالتالي في البلاد ككل.

كان عام ١٩٥٦ دون شك عاما مؤلما لكل الاطراف المعنية. غير انه خلق فكرا راديكاليا في كل من بريطانيا وفرنسا بالنسبة لدورهما في العالم. ففي فرنسا، عجلت حرب السويس في سقوط الجمهورية الرابعة وصعود نجم الجنرال ديغول. وهذا قد مهد بدوره الطريق لتحرير الجزائر ووضع نهاية للحرب المفجعة التي كانت تدور على ترابها. وبدأت رياح التغيير التي تحدث عنها هارولد ماكميلان تهب في كل ارجاء افريقيا، حيث نالت مجموعة من المستعمرات السابقة، استقلالها عن بريطانيا. الرأي السائد اليوم هو ان السويس كانت مفترق طرق في تاريخ بريطانيا الحديث، فاولا مهد كانت طبيعة بريطانيا واسرتها في السابق، فقد تغيروا كثيرا منذ الازمة. ومن المرجح ان ينظر الى المستقبل الى عام ١٩٥٦ على انه حقبة وبداية حقبة جديدة

فما هو التغيير الذي [illegible] الذي خلق بريطانيا الحديثة؟

تتم عادة الاجابة على هذا السؤال على ان الذي تغير هو نظرة البريطانيين الى انفسهم والى العالم من حولهم.

بأننا لم نكن كما كنا نظن او نعتقد، بل لا يمكن لنا ان نكون كما كنا نظن او نعتقد. غير انه من الخطأ الاعتقاد بأن التغيير قد اصبح ناجزا. ان هذا الاعتقاد لدى العديد من البريطانيين يتسم بالسذاجة وخداع الذات معا. ولا تزال بعض الدوائر النافذة تعتقد بأننا نملك وزنا اقتصاديا وعسكريا يؤهلنا تبوء مرتبة رائدة بين الامم. ومن سخرية القدر بأن هذا الاعتقاد المبسط قد ينطبق على بريطانيا اليوم اكثر مما كان ينطبق عليها أبان ازمة السويس عام ١٩٥٦.

ذكريات ازمة السويس

لا استطيع ان اطيل الحديث عن الأثر الفوري لأزمة السويس على بريطانيا. فقد كنت لا اتجاوز العاشرة من عمري عندما وقعت الازمة. وكل ما اذكره في حينها هو ان المنطقة التي كنت اعيش فيها كانت تضم عددا كبيرا من الثكنات والمخازن العسكرية بما فيها مخزن دخائر عملاق تحول اليوم الى سوبر ماركت ضخم.

واذكر ايضا بأنني كنت من المحظوظين لأن اسرتي كانت من بين الاسر القليلة التي تملك جهاز تلفزيون في المنطقة. لذلك تحول منزلنا الى ملتقى شعبي عندما بدأت احداث السويس تتوالى وكانت (البي. بي. سي) تعرض مشاهد منها على جمهور المشاهدين في برنامج الاخبار المسائي. وفي مطلع الازمة استأثر عبدالناصر بحصة الأسد من التعليقات العدائية. ولكن بعد الانسحاب صب البريطانيون جام غضبهم على الامريكيين. وبعض الناس الذين كانوا يتجمهرون امام منزلنا لا يزالون احياء يرزقون. وهم ما زالوا متمسكين باعتقادهم ان العملية كانت بريطانية برمتها .ولا بد للفرنسيين او الاسرائيليين فيها، ولا يزالون يحملون على الدور الامريكي فيها.

لا بد من ايلاء هذا الاستياء من الدور الامريكي اهمية خاصة اذا اردنا ان نرى ازمة السويس على حقيقتها. اذ ان احداث الشرق الأوسط ما فتئت تطرح التساؤلات حول ثبات التحالف البريطاني مع الولايات المتحدة. ويمكن القول بأن هذه المنطقة بالذات كانت مسرحا للتنافس على النفوذ السياسي والاقتصادي بين القوتين المذكورتين، هذا التنافس الذي ما زال محتدما منذ نصف قرن ونيف. وكانت النتيجة ان تخلت احدى القوتين عن السوط الامبريالي الذي التقطته القوة الأخرى واخذت تستخدمه او تلوح باستخدامه كلما ارتأت ذلك.

لقد ترتب على بريطانيا طوال تلك الفترة ان تتعلم كيفية التكيف مع فقدانها لقوتها وجبروتها. والحق يقال بأنها تعلمت بسرعة اكبر مما يتم الاقرار او الاعتراف به. فخلال ازمة السويس لعب البريطانيون دور (القوة العظمى) ربما لآخر مرة في تاريخهم. وقد اكتشفوا بأنه في حين انهم كانوا قادرين على نقل قوات عسكرية ضخمة الى اماكن تبعد الاف الأميال عن بلادهم، غير انهم كانوا عاجزين عن السيطرة على مصير عملتهم التي وضعتها الأزمة في مهب الريح.

لم يقتصر التفاوت بين ما اعتقد البريطانيون بأنهم قادرون على فعله وبين الواقع، على الطبقات المحكومة فحسب، فقد سبق للبلاد ان انقسمت على نفسها حول مسألة الامبريالية وفعلت ذلك مجددا ابان ازمة السويس. ووصل التناحر الى القمة. وكذلك كان الحال بالنسبة للانتداب على فلسطين (الذي ألبس ثوبا دوليا). ويقال الشيء ذاته بالنسبة للهند. وفيما بعد ادت سياسة الحكومة العمالية بين ١٩٦٤ و ١٩٧٠ بالانسحاب من شرقي السويس (ماليزيا والخليج العربي وعدن) الى احتدام النقاش حول دور بريطانيا

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية